بتاريخ 09 ذيقعده 1446
المواسعة و المضايقة

الجلسة 89

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمْ
اَلْحَمْدُ للّه رَبِّ الْعَالَمِينْ وَصَلَى الله عَلَىٰ سَيِّدَنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينْ

الدّلائل الرّوائيّة الرّاقية لقاعدة «الجمع» السّامية

لقد استَحضر صاحب الجواهر بعض الرّوايات الّتي تُعيننا لاقتباس قاعدة «الجمع مهما أمكن» و قد ألفَينا على عدّة أخرى بهذا الشّأن وفقاً للنَّسق الآتي:

ـ «عن البطائني قال: دخلت أنا وأبو بصير على أبى عبد الله عليه السّلام فبَينا نحن قعود إذ تكلَّم أبو عبد الله عليه السّلام بحرف، فقلتُ أنا في نفسي: هذا مما أحمله إلى الشّيعة، هذا والله حديث لم أسمع مثلَه قطّ، قال: فنَظَر في وجهي، ثمّ قال: «إنّي لأتكلَّم بالحرف الواحد لي فيه سبعون وجهاً إن شئتُ أخذتُ كذا وإن شئتُ أخذتُ كذا»[1]

ـ «اَلصَّدُوقُ فِي اَلْعُيُونِ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي حَيُّونٍ مَوْلَى الرِّضَا عَنِ اَلرِّضَا عَلَيْهِ السَّلاَمُ قَالَ: مَنْ رَدَّ مُتَشَابِهَ اَلْقُرْآنِ إِلَى مُحْكَمِهِ هُدِيَ إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ ثُمَّ قَالَ إِنَّ فِي أَخْبَارِنَا مُتَشَابِهاً كَمُتَشَابِهِ اَلْقُرْآنِ وَ مُحْكَماً كَمُحْكَمِ اَلْقُرْآنِ فَرُدُّوا مُتَشَابِهَهَا إِلَى مُحْكَمِهَا وَ لاَ تَتَّبِعُوا مُتَشَابِهَهَا دُونَ مُحْكَمِهَا فَتَضِلُّوا.»[2]

و الرّواية الثّانية تُهدي لنا نكتة إجتهاديّة مثاليّة حيث إنّ الأعاظم يَدرُسون دوماً «الجمع الدّلالي العرفيّ بين الرّوايات» بينما قليلاً مّا يَهتمّون «لمتشابهات الرّوايات و محكَماتها» و لكن يَبدو أنّها قد تَكاثَرت في نطاق العقائد نظير المرويّات المصرّحة: «مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي نَصْرٍ عَنْ حَسَّانَ الْجَمَّالِ قَالَ حَدَّثَنِي هَاشِمُ بْنُ أَبِي عُمَارَةَ الْجَنْبِيُّ قَالَ سَمِعْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ يَقُولُ: أَنَا عَيْنُ اللَّهِ وَ أَنَا يَدُ اللَّهِ وَ أَنَا جَنْبُ اللَّهِ وَ أَنَا بَابُ اللَّهِ.»[3] و خاصّةً أنّ الرّواية الثّانية قد استَخدَمت عبارة: «فتضلّوا» ممّا يعني أنّ المتشابهات و المحكَمات ترتبط بالمسائل العَقَديّة.

فرغمَ أنّا قد التَقَطنا 24 ضابطاً و أقاويل في تفسير «المحكَم و المتشابه» ثمّ ناقشناها بأسرها، إلا أنّ المحصود النّهائيّ أنّ المُحكَم يُمثِّل الصَّراحة و الجلاءَ المعانيّ بحيث لا يَتقبَّل وجوهاً مُتَبَعثِرة، عكساً للمتشابِه الحاوي لشتّى الأوجُه.

و أساساً إنّ عَطف المتشابِهات على المحكَمات يُعدّ منهاجاً حصيناً قد وَرِثناه من بيانات آل البيت عليهم السّلام لدى عمليّة تفسير القرآن المَنّان، و على منواله سنُفسِّر الآية المتشابِهة التّالية: «ليَغفِر لكَ الله ما تقدَّم من ذَنبك»[4] بما يُلائم المحكَمات المذكورة ـأي العصمة القطعيّةـ[5] فبالتّالي لا يَحدُث أيّ تضارب بين المتشابهات و بين المحكمات أبداً فإنّ نسبتَهما كنسبة الحاكم مع المحكوم و الوارد مع المورود، و من المبرَم أنّ الأُولَيَين تَتفوَّقان على الثّانيَين، فكذلك المحكَم تجاهَ المتشابِه، فعلى هذا المِنوال أيضاً سيُفسَّر معنى «و جاء ربّك و المَلَك»[6] حيث إنّها متشابهة بتّاً و لكن حيث قد اتَّضح المَرام بأنّه تعالى عديم الجسم وفقاً للآية التّالية: «ليس كمثله شيئ» و «الله نور السماوات و الأرض» فأصبَحت هذه مُحكَمةً فائقةً و مفسِّرةً لتلك المتشابهات تماماً.

و تكملةً لذلك، سنُفسِّر أيضاً الآية المتشابِهة الآتية: «وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لاٰ نَبِيٍّ إِلاّٰ إِذٰا تَمَنّٰى أَلْقَى الشَّيْطٰانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ

فَيَنْسَخُ اللّٰهُ مٰا يُلْقِي الشَّيْطٰانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللّٰهُ آيٰاتِهِ وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»[7] حيث قد اشتَبه البعض في تفسيرها فحرَّف معناها زاعماً أنّ الشّيطان يَتيسَّر له التّصرّف في أفكار و إرادات المعصومين «بإلقاء الوسوسات» في نفوسهم عليهم السّلام ـ مستدِلّاً بفِقرة «ألقى الشّيطان في أمنيَّته» ـ.[8]

فالمستَنتَج أنّ تجميع المعاني و الانصرافات و المَعاريض و الأوجُه معاً ضمن إطار مشترَک سيُنتج قاعدةَ الجمع مهما أمكن.

ثمّ صاحب الجواهر قد أطالَ حواره حول قاعدة الجمع أيضاً قائلاً:

«و إنّ القرآن نَزل على سبعة أحرف، و أدنى ما للإمام أن يُفتي على سبعة وجوه، هذا عطاؤنا فامنُن أو أمسِك بغير حساب»[9] (و هذه ناصّة على مشرّعيّة الإمام أيضاً) و لا أقلّ من موافقة الجمع غالباً لما دلّ على أنّك: «بأيّهما أخذتَ من باب التّسليم وسِعك»[10] أو أنّه غيرُ منافٍ له».

مِنظار المحقّق الخوئيّ بشأن «سبعة أحرُف» و المعاني

لقد نَسَب المحقّق الخوئيّ كافّةَ المَرويّات المتحدّثة حول «سبعة أحرُف» إلى الفِرقة البكريّة قائلاً:

«لقد ورد في روايات أهل السُّنّة أنّ القرآن أُنزل على سبعة أحرف، فيحسُن بنا أن نتعرَّض إلى الّتحقيق في ذلك بعد ذكر هذه الرّوايات: أخرج الطّبريّ عن يونس و أبي كريب، بإسنادهما، عن ابن شهاب، بإسناده عن ابن عبّاس، حدَّثه أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «أقرَأَني جبرئيل على حرف فراجعته، فلم أزَل أستزيده (حرفاً) فيَزيدُني حتّى انتَهى إلى سبعة أحرُف».[11]

ثمّ قيَّمها المحقّق الخوئيّ قائلاً:

« .... هذه أهمّ الرّوايات الّتي رُوِيَت في هذا المعنى، و كلّها من طرق أهل السّنّة، و هي مخالفة لصحيحة زرارة عن أبي جعفر عليه السّلام قال: «إنّ القرآن واحد نزل من عند واحد، و لكن الاختلاف يجيء من قبل الرواة»[12] و قد سأل الفضيل بن يسار أبا عبد اللّه عليه السّلام فقال: «إن الناس يقولون: إن القرآن نزل على سبعة أحرف. فقال أبو عبد اللّه عليه السّلام: «كذبوا ـ أعداء اللّه ـ و لكنه نزل على حرف واحد من عند الواحد»[13] و قد تقدم إجمالاً أن المرجِع بعد النّبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في أمور الدّين، إنّما هو كتاب اللّه و أهل البيت الذين أذهب اللّه عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا «و سيأتي توضيحه مفصّلاً بعد ذلك إن شاء اللّه تعالى، و لا قيمةَ للرّوايات (للفِرقة البكريّة حتّى لو وُثِّقت مَرويّاتهم و رجالها) إذا كانت مخالفةً لما يصحّ عنهم (لدى المقاييس الشّيعيّة) و لذلك لا يهمُّنا أن نتكلَّم عن أسانيد هذه الرّوايات، و هذا أول شيء (أي مجرّد التّصادم سوف) تَسقُط به الرّواية عن الاعتبار و الحجيّة. و يضاف إلى ذلك ما بين هذه الروايات من التخالف و التناقض، و ما في بعضها من عدم التناسب بين السؤال و الجواب.»[14]

---

[1] بصائر الدرجات: ص ٣٤٨

[2] عيون أخبار الرضا (عليه السلام) ص ٢٩٠ ح ٣٩.

[3] كلينى محمد بن يعقوب. الكافي (اسلاميه). Vol. 1. ص145 تهران ـ ايران: دار الكتب الإسلامية.

[4] سورة الفتح الآية 2.

[5] حيث قد ورد عن الإمام الرّضا عليه السّلام قائلاً: «فلما فتح الله تعالى على نبيه صلى الله عليه و آله و سلم مكة قال له: يا محمد إِنّا فَتَحْنٰا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللّٰهُ مٰا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مٰا تَأَخَّرَ عند مشركي أهل مكة بدعائك إلى توحيد الله فيما تقدم و ما تأخر لأن مشركي مكة أسلم بعضهم و خرج بعضهم عن مكة و من بقي منهم لم يقدر على إنكار التوحيد عليه إذا دعا الناس إليه،

فصار ذنبه عندهم في ذلك مغفورا بظهوره عليهم، فقال المأمون: لله درك يا أبا الحسن.» (مجلسی محمدباقر. مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول. Vol. 8. ص150)

[6] سورة الفجر الآية 22.

[7] سورة الحجّ الآية 52.

[8] و يَجدُر بنا أن نُلوِّح إلى آيات «الوسوسة تجاه المعصوم» حيث يُعبِّر تعالى قائلاً: «فوسوَس لهما الشّيطان ليُبدِيَ لهما ما وُرِيَ عنهما» (سورة الأعراف الآية التّالية: 20) و قال تعالى: «فوسوَس إليه الشّيطان قال يا آدَم هل أدلُّک» (سورة طه الآية 120).

فإجابتهما ساطعة حيث: أوّلاً: إنّها خطابات تَخُصّ عالَماً منعدِمَ التّكليف نهائيّاً و قد كان إبليسُ حاضراً في أوساط الملائكة و آدم و حوّا ممّا قد أهَّلَه إلى الارتباط معهم. ثانياً: ثمّة تمايز رئيسيّ ما بين «الوسوسة فيه» و بين «الوسوسة إليه و له» فإنّ الأولى هي الّتي تَتسلَّل و تَنفُذ فی صدور الناس و أفكارهم فيَتسلَّط عليهم ـ من دون أن يَسلِب اختيارهم ـ حيث صرَّح تعالى قائلاً: «يُوَسْوِسُ فِی صُدُورِ النَّاسِ» و لكنّ الوسوسة الثّانية لا تتدخَّل في نفوسهم أساساً بل يَدنو الشّيطان منهم و يُناهِزهم فحسب فيُلقي العَداوة بين المسلمين لا المعصوم، إذن قد عاينتَ التّفاوت الحسّاس ما بين التّعبيرَين فإنّه تعالى قد ألفَتَ أنظارَنا لهذه النّقطة الطّريفة، فبالتّالي لم يُوسوِس الشّيطان في أفكار آدم و إرادته أبداً إذ وَسوس «إليه» لا «فيه».

و من الحَريّ أيضاً أن نَستذكِر في هذا الحَقل الرّواية التّالية: «عن الإمام الرّضا (عليه السّلام): «فإن الله عز وجل خلق آدم حجةً فی أرضه وخليفة فی بلاده لم يخلقه للجنة، وكانت المعصية من آدم فی الجنة لا فی الأرض، وعصمته يجب أن تكون فی الأرض لتتم مقادير أمر الله، فلما أهبطه إلى الأرض وجعله حجةً وخليفة عصمَه بقوله عز وجل: إنّ الله اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إبراهيم وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ.». (الوافي ج2 ص291). وفی مسند الإمام الرضا (عليه السّلام) 2/125: وإنما كان من الصغائر الموهوبه التی تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحی عليهم ، فلما اجتباه الله تعالى وجعله نبياً كان معصوماً ، لا يذنب صغيره ولا كبيره ، قال الله عز وجل:وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه ، فتاب عليه فهدى». و لكن لو افتَرضنا جدلاً أنّ الأنبياء قبل بعثتهم غيرُ معصومين عن الصّغائر لوجَّهناه إلى بعض الأنبياء فقط كآدم(عليه السّلام) بينما عظُماء الأنبياء كخاتم الأنبياء و أوصيائه(عليهم السّلا) قد ترسَّخت عصمتُهم العليا درجةً من عصمة سائر المعصومين.

[9] البحار ۸۳:۹۲، ح ۱۳.

[10] الوسائل ۱۰۸:۲۷، ب ۹ من صفات القاضي، ح ٦.

[11] البيان فی تفسير القرآن، ص: 171

[12] اصول الكافي: 1/ 630، كتاب فضل القرآن ـ باب النوادر، رقم الحديث: 12.

[13] اصول الكافي 1/ 630، كتاب فضل القرآن ـ باب النوادر ـ رقم الحديث: 13.

[14] البيان فی تفسير القرآن، ص: 177